ما ليس يفهمه الطفل

قصـــة روسية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

« نيقولاى أليتش » رجل من أغنياء بطرسبرج يبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، وهو ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، محمر الوجه . وكان قد اتخذ من زوجة المسيو « أرنين » خليلة له ، فقضى معها شطراً من الزمن فى غرام حار متبادل ، ثم خمدت جذوة حبه ، فصار يتردد على منزلها بين حين وحين ، وبينهما نوع من الحب الفاتر ...

وزارها فى يوم من الأيام ، فلم يجدها ، وجلس ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، فدخل ابنها الصغير وحياه وقال : إن أمه ستعود سريعاً ، وهى الآن عند الخياطة مع أخته « صونيا » ...

وكان عمر هذا الطفل ثمانية أعوام ، واسمه « أليوشا » ، وهو حسن البزة ، قوى البنية ، عليه ثوب نظيف من القطيفة ، وفى قدميه جورب أسود طويل ؛ وكان يلعب ألعاباً رياضية ، مستمتعاً بما وهبه الله من صحة جيدة ... وبدأ الرجل يحدثه ليمضى الوقت ولكى يداعبه ، فقال : هل أمك فى صحة جيدة ؟

فأقبل الطفل نحوه وقال : « إنها لم تكن قط فى صحة جيدة ، وهى كل يوم تشكو من مرض » ، وأخذ الرجل يتأمل فى وجه الطفل ليرى فيه محاسن أمه فى صباها يوم كان حبهما لا يزال فى سورته وسأله عما يتلقاه فى المدرسة ؛ فقال إنه وأخته صونيا يحفظان قطعة من الشعر الفرنسى . وقال الرجل للطفل : « هل حلقت شعرك اليوم ؟ » فقال : « نعم . وأنت حلقت أيضاً ، لأن لحيتك أصغر من العادة . أتأذن لى أن أمسكها ؟ »

قال الرجل : « لا لا ! لن آذن بذلك » فقال الطفل : « لماذا ؟ هل يؤلمك أن أنزع شعرة أو شعرتين ؟ »

ثم أمسك السلسلة الذهبية المعلقة فى صدر إيلتش وقال : « إن أبى قد وعدنى أن تشترى لى ساعة إذا انتقلت من فرقتى . إن هذه السلسلة كالتى فى صدر أبى »

قال إيلتش : « ومن أخبرك بذلك ؟ هل رأيت أباك ؟ » فتلعثم واضطرب وقال : « أنا ... كلا ! »

ولكن الرجل نظر إليه نظرة حادة وقال : « هل رأيت أباك ؟ » فقال : « كلا ... كلا ! »

فقال الرجل : كن شريفاً فإنى أرى من ملامحك أنك تكذب . قل لى : هل رأيت أباك ؟ فقال الطفل همساً : « وهل تعدنى ألا تخبر أبى »

فقال : « أعدك »

قال الطفل : « وهل تقسم بشرفك ؟ »

فقال الرجل : « نعم أقسم »

فنظر الطفل حوله وقال بصوت منخفض : « أستحلفك ألا تخبرها فإنها لو علمت لضربتنى أنا وصونيا والخادم ... أنا وصونيا نقابل أبى كل يوم من أيام الإثنين ، وذلك لأنه اتفق مع الخادم على أن يمر بنا على حانوت ينتظرنا فيه ، وهناك يشترى لنا فواكه وحلوى وبيضاً ويحدثنا »

قال الرجل « يحدثكم بماذا »

فقال : « بكل شىء ، ويقبلنا ويقص علينا قصصاً جميلة ، ويقول إنه سيأخذنا لنعيش معه متى كبرنا . وقد قالت له صونيا لا ، ولكننى قلت له نعم ، وسأبتعد عن أبى ولكنى سأراسلها وأزورها فى أيام العطلة . ويقول أبى إنه سيشترى لى جواداً ، وأنا لست أعرف لماذا لا تدعوه أمى للعيشة معنا ؟ ولماذا لا تقابله مع أنه يحبها ويسألنا عنها دائماً . ولما مرضت وأخبرناه بذلك بكى وأمرنا باحترامها وطاعتها ... ألسنا بائسين ! ؟ »

قال الرجل : كيف ؟

فاستمر الطفل يقول : أبي قال ذلك ، وقال إن أمي بائسة ، وقال لي كلاماً غريباً لم أفهمه ، لأنه أمرني بأن أصلي من أجلها

قال الرجل : إذن فأنتم تتقابلون بغير أن تعلم أمك ؟ فقال : لا نستطيع أن نخبرها ، فقد أكد علينا الخادم بذلك . وبالأمس قابلت أبي واشترى لي كثيرا !

قال الرجل : ألم يتكلم أبوك عني ؟

فأجابه الطفل : عنك ! ؟ لماذا ؟ ثم هز كتفيه .

فسأله الرجل : ألم يقل شيئاً ؟

قال الطفل : ألا يغضبك ما يقول ؟

فأجاب الرجل : لماذا ؟ هل شتمني ؟

قال : كلا . . . ولكنه قال إن أمي بائسة بسببك ، وأنك أفسدت سعادتها ؛ وقد قلت له إنك لا تسبها ولا تهينها ، فهز رأسه !

قال الرجل : هل أبوك يقول إنني أفسدت سعادتها ؟

فقال الطفل : نعم ، ولكن لا تغضب فأنت وعدتني

عند ذلك مشى أليتش في الغرفة ذهاباً وجيئة وقال وهو يهز كتفيه ويبتسم ابتسامة المتهكم : « أنا أفسدت سعادتها ! أنا ؟ هل قال ذلك يا أليوشا ؟ »

فقال الطفل : « ألست وعدتني ألا تغضب ؟ » فقال : « أنا لم أغضب ولكن هذا شيء عجيب . . . أنا أقع في الفخ ولا أسلم من اللوم »

وهنا دق الجرس ، فجرى الطفل نحو الباب ، ودخلت أولجا أم أليوشا وخلية أليتش ، وقال الأخير عند ما رآها : « نعم نعم إنه مظلوم فهو الزوج المخدوع »

قالت أولجا : « ما الخبر ؟ »

فقال : « اسمعي ما يقوله زوجك ... إنه يقول إنني أفسدت سعادتك وسعادة أولادك »

قالت أولجا : « لست أفهم ما تقول يا أليتش ؟ »

فقال : « سلي ابنك »

فنظرت الأم إلى ابنها في دهشة ، ونظر الطفل إلى أليتش في ارتباك ، وقال الأخير : « إن خادمك يأخذه ويأخذ صونيا إلى حانوت يقابلهما فيه زوجك الذي يحسب نفسه شهيداً ، ويحسبني أفسدت حياته وحياتك »

عند ذلك صاح الطفل : « أنت حلفت لي بشرفك »

فأشار أليتش بيديه وقال : « إن هذا أمر أهم من يمين الشرف »

فقالت أولجا والدموع تملأ عينيها : « أخبرني يا أليوشا متى قابلت أباك ؟ »

فلم يصغ إليها الطفل لأنه كان ناظراً نظرة غيظ إلى أليتش وقالت الأم : « هذا محال ! سأذهب وأسأل الخادم »

ثم خرجت وصاح الطفل وهو يرتعش : « ألم تقسم لي بشرفك ؟ »

فأشار الرجل بيديه مرة أخرى ثم لم يعد يلحظ وجود الطفل فهو رجل ضخم الجثة لا يعبأ بالأجسام الصغيرة ، وجلس أليوشا في ركن من الغرفة يخبر أخته كيف خدعه الرجل حتى عرف سره ؛ وكان يرتعش ويبكي ، وكانت هذه أول مرة وقف فيها وجهاً لوجه أمام أكذوبة . وكم في الدنيا من أشياء لا أسماء لها في لغة الأطفال !

عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا من كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)